عقيدة الحبل بلا دنس في الكنيسة السريانية

بقلم الخوري اسحق ارملة السرياني

رحب العالم الكاثوليكي في الخافقين ترحيباً بنوياً عذبا جذاً بالرسالة العامة التي أصدرها ابو المؤمنين العام البابا بيوس الثاني عشر بتاريخ ٨ ايلول ١٩٥٣ معلناً الاحتفال بمرور قرن كامل على ما قرّره سالفه الخالد الاثر البابا بيوس التاسع تقريرًا احتفالياً بشأن عقيدة الحبل بريم العذراء المبرّطة دون دنس او عيب البتة .

ولقد طفح قلبي حبورًا وشكرًا عندما أفضى اليّ مدير مجلة المشرق الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي الجليل لاكتب كلمة في هذا العدد أنقلها عن تصانيف ابمة السريان ومشاهيرهم .

ولعمري اي قلب لا يستعذب ويستحلي تلك الصفة الجميلة الفريدة التي لم تبن بها الربّ السخي الا على العذراء الجزيلة قداستها والفائقة طهارتها ونقاوتها منذ اللحظة الاولى لتكوينها في حشا والدتها القديسة حنة ؟

ويحق لكنيستنا السريانية خصوصاً ان تفتخر الافتخار كله لان اولى البنات الصادعات الساطعات التي دبج بها الحبر الاعظم المالك سعيدًا رسالته الموماً اليها عن عصمة العذراء من الخطيئة الاصلية قد نقلها عن تصانيف أبينا مار افرام السرياني ملفان الكنيسة الكاثوليكية وهي : « انك يا يسوع قد أحرزت انت وامك البهاء كله . لانكما وحدكما منزّهان عن كل عيب ! » .

ولعمري اذا كانت زيارة العذراء القديسة لنسيبتها اليشباع قد قدّست يوحنا جنينها وهو بعدُ في مستودع أمه أفيكون مستغرباً وعجيباً ان تحبل بها أمها دون وضر أو دنس ؟ حاشَ والف كلّا !

على اننا في مقالنا هذا نغمض عن سرد جميع الصفات البديعة النادرة التي أطلقها آباؤنا السريان عن العذراء الطاهرة . ونقتصر عن ذكر ما جبروا به تآليفهم من الصفات الشائقة المتوطة بجبلها النقي دون دنس اصلي ودون وصمة البتة . فقد صرّحوا بانها عليها السلام تضارع ابنها القدوس بنقاوتها وقداستها .

وانها تفوق الكواريب والسوارفين وجميع الاجناد العلوية بطهارتها . وانها لؤلؤة يتيمة لا دون فيها اصلاً . وهي هيكل طاهر نقيّ استقرّ فيه يسوع ابنها ربّ القداسة . وتابوت العهد . وجرّة جدعون وطأها . وعرش الاله العلي . وام الحياة والخلاص . وسماء ثانية حلّ فيها رب السماوات يسوع القداسة . وهي الملاحقة لضة آدم وحوّا . والديها والعيدة اليها والى ذريتها حلة البرارة الاولى الخ الخ .

بعد هذا التصريح الواضح الجلي رأينا ان ننقل عن السريانية ما اثبته مشاهير آبائنا في قصائدهم الرنانة الخالدة عن هذه الحقيقة الدينية الراهنة :

اولاً : الجبل بلا يدين ومار افرام الملفان الكبير († ٣٧٣)

أنشد مار افرام في باكورة قصائده المشهورة بقصائد نصيبين[1] مخاطباً يسوع فادينا عزّ شأنه :« انك انت وأمك وحدكما تسران جدًّا وتفوقان الجميع . اذ لا عيب فيك ولا شائبة في أمك » . وأردف : « نسجت مريم حلة المجد ووشّحت أباها الذي تعرّى بين الاشجار . وسترت عريه . حوّاء . امرأته اسقطته والعذراء . ابنته أنهضته فانتصبَ جذلاً محبورًا » . واستطرد :« بكَ يا ربي وبأمك اجتمعت الكمالات بأسرها من كل وجوهها . فلا عيب فيك ولا شائبة في أمك ... لقد أحرزت يا يسوع انت ووالدتك البها . كله . لانكما وحدكما منزّهان عن كل وصمة » .

وكتب في نشيد بشارة العذراء :« ان مريم هي حديقة الله العليّ . وليس فيها شجرة معرفة الخير والشرّ ولا حيّة تغري وتطغي ولا حوّاء تهلك وتردي . لاح المخلص من مريم واعاد المنفيين الى السماء . »[2]

وكتب في وصفه انتقال العذراء الى السماء : « مرحباً بنفس نقيّة مقدسة لم تتلوث قط بخطيئة ؟ مرحباً بجسد نقيّ طاهر أعاد الحياة الى آدم ... ان

---

١) هذه القصائد نشرها الاستاذ غوستاف بيكل الالماني عام ١٨٦٦ وصرح في المقدمة ان اقوال مار افرام عن الجبل بلا دنس قد حملته ان يهجر البروتستانية وينضمّ الى الكنيسة الكاثوليكية عام ١٨٦٥ ثم ارتقى الى الرتبة الكهنوتية عام ١٨٦٧ وتوفي عام ١٩٠٦ بالنًا ٦٨ سنة .

٢) فنفيث ١ : ١٣١

الروح القدوس قد اعفى مريم من لعنة الامّ الاولى ، لانها لم تفتح بابا للخطيئة »[1].

وانشد كذلك : « ان للعذراء الطاهرة رتوات من المحاسن الجميلة لا ادري باي منها اقرظها . فهي والدة الله وهي اعجوبة العجائب والسماء الثانية. وقد حملت حامل البرايا طرًا باشارته »[2].

وقد نقل اليونان والسريان الملكيّون هذه العبارة الذهبيّة عن مار افرام وهي : « انك اكرم من الشاروبيم وأرفع سموًا من جميع الطغمات السماوية ». وأدمجوها في انشودتهم الشهيرة « يواجب الاستبشال حقًا نغبط . . . » وهم يترنّمون بها بنغمات شتى[3].

ثانيًا – الحبل بلا دنس والقديس ربولا مطران الرها (٤١٣–٤٣٥)

شُغف هذا القديس الجليل بمحبة والدة الله العذراء المجيدة . وأبدى في مواعظه وكتاباته وانا شيده محامداته خصوصاً عن أمومتها الالهية . وارتحل الى قسطنطينية والقى في كنيستها الكبرى خطبةً باللغة اليونانية مفنّدًا ومزيّفًا دعوى نسطور الملحد . وراسل في هذا المعنى صديقه مار قرلس الاسكندري[4]. ويكرم السريان الملكيون تذكاره في ٩ ايلول[5] والسريان في ١٧ كانون الاول.

ونظم مار ربولا اناشيد لطيفة بعنوان « احتفال » ابتهالات تُعدُّ نغماتها الرخيمة من أعذب النغمات وأشجاها وأشدّها تأثيرًا في الافئدة . ننثر في تضاعيفها دررًا نفيسة قدّمها للعذراء الطاهرة . نقتطف منها ما له صلة بموضوعنا :

أنشد في الابتهال الاول :

« يحييك الجميع ايتها الفديسة والدة الله مريم . يا كنزًا ثمينًا ونبراسًا لامعًا يضيء المسكونة كلها . . . يا هيكلًا طاهرًا نقيًا لبارئ البرايا جمعاء . . . لقد حيرني يا اخوتي رونق مريم الفائق البهاء . . . فهي فتحت ينبوع الخلاص وغدت أسمى وأرفع من الملائكة ! من تراه لا يحتفي بتذكارك ايتها العذراء الطاهرة الفائقة القداسة ؟ ومَن لا يكرّم عيدك يا ام الله ؟ انك أسمى وأبهى من البهاء نفسها ! »

---

١) فنقيث ٦ : ٤٠٦

٢) الاشحيم ١٣٧

٣) المشرق ٣١ : ١٩٣٣ : ٨١٤.

٤) اخبار الشهداء والقديسين : طبع الاب بولس بجان ٤ : ٢٩٦–٤٧٠

٥) كلندار الكنيسة الانطاكية (المشرق ٥ : ١٩٠٢ : ٦١) .

وأنشد في الابتهال الثاني :

« عليكِ السلام يا مريم والدة الله الكلمة العليّ . ايتها العذراء الطهور الاديسة . عليكِ السلام يا سيدة ثانيةً لكلمة الآب الازليّ . . . انا استنادًا الى الايمان الحق نعظم ام الله المفعمة قداسةً . ولكن انى يتاح للسان الترابي ان يستوفي مديحها وقد قصر الملاك عنه في تعريظها ؟ »

وترنم في الابتهال الثالث :

« اصبحتِ يا مريم مدعاةً الى خلاص جنسنا المؤمن . ومجلبةً للخيرات والبركات ومجددةً لمتقنا . . . كيف يتيسر لنا ان نقرظك ايتها العفيفة ؟ انك وحدك فريدة بالقداسة . ومنكِ نستدفق الخيرات والبركات لجميع المؤمنين . . . وطدي ايمانا وأنيري العالم كافة » .

وهتف في ابتهاله السادس :

« ان أمركِ ايتها النقية الطاهرة يدهش الملائكة عينهم . لانكِ ولدتِ وانت عذراء ابنَ الله المساوي لوالدهِ . وقد اتخذ جسدًا من طهارتكِ ليتقذ آدم وذريته » .

وترنم في ابتهاله السابع :

« انحدر ابن الله الى مستودع بنت داود فرفع راس جنسنا الذي خفضته مخالفة الوصية . هو الكريم الذي خلق من مريم بنت داود لصنة حواء وانقذ منها » .

أخيرًا يحدثنا مار يولا المغبوط بنشيده التالي البديع عن عواطف العذراء المفعمة رقةً وعذوبة وروعةً ومهابةً فيقول :

« تتساءل مريم قائلةً : من مثلي عزيزة قديرة حملت ربّ الملوك ؟ بي صوّر الملهمون أجمع والانبياء كافة اسرارهم وألغازهم وأمثالهم . اني أسمى من الملائكة وأقدس من أجواق السواريف ! ! هذه هي ابنة داود . فيها نشأ غصن الحياة والخلاص الذي اياه تسبح . ولوالدته نغرظ جميعنا ! » (١) .

ثالثًا — الحبل بلا دنس ومار اسحق الملفان († ٤٦٠) .

أزهر مار اسحق الملفان في القرن الخامس وكان رئيس دير كبير في ضواحي انطاكية . واشتهر في عهد المجمع الافسوسي ٤٣١ والمجمع الخلقيدوني ٤٥١ المسكونيين(٢) وورد اسمه ما بين آباء المجمع الافسوسي(٣) . ونظم قصائد دقيقة محكمة(٤) فنّد بها زعمي نسطور واوطيخا الملحدين . وأيد بأبلغ عبارة

١) كتاب الفرض السرياني ٧٧-١٢٧

٢) مخطوطة دير الشرقة ٤-٧

٣) نشرها عام ١٩٠٣ الاب بولس بيجان المذكور في المتن .

وافصح لهجة انّ في مخلصت يسوع اقنوماً واحداً وطبيعتين .

وخلّف مار اسحق خطبا سريانية نقلت الى اليونانية ومنها الى العربيّة . ورجح الاب لويس شيخو اليسوعي الخالد الآثار ان ناقلها هو ابو الفضل الانطاكي الملكيّ . فرأينا ان نقتصر منها على ما اثبته الملفان القديس بشان الحبل النقيّ بالعذراء القديسة قال :

« استحقت السيدة العذراء الشرف والبهاء والجمال والرفعة بالكمال على طغمات الملائكة . . . اليوم يعزي آدم جنسنا بمريم القديسة المباركة الجليلة المجبلة الطيبة الآدمية . ملكة السلالة الانسية . الطاهرة النقية التي لم يوجد في الاجيال الناشئة اطهر منها جسداً ! القديسة التي لم يوجد في البرايا العقلية اقدس منها نفساً !

« ان الجليلة في النساء نالت نعمة الله باصطفائه اياها ليتجسد منها ويتأنس من قداسة دمائها . فلم يكن في الاولين من يضاهي طهارتها . ولا صار في الاخرين من يشاكل قداستها . ولن يصير ذلك قط ! . .

« فتبادر اجمعين الى اكرام سيدتنا وملكة طيبتنا مادحين جمال طهارتها . موقرين دوام بتوليتها . مكرمين سمو قداستها . يا فخر البنات ويا زينة الامهات . يا والدة لا رجل لها . ويا بتولا حاملة لولدها . يا عجباً عجبت منه الملائكة والانبياء والمرسلون . وعجدته الملائكة الاقدسون !

« فاشفعي بنا يا من لا تُرد شفاعتها ولا تُذم ضراعتها . القريبة من اللاهوت الازلي والناموث العنصري . الناشقة العلوّ على المواكب الشاروبيمية . العالية السموّ على الصفوف السارافيمية . . لكي نصل بشفاعتك عند انتقالنا الى المصير الدائم والتنعم في ملكوت السماوات والسكنى في دار الحياة »[1] .

رابعاً — الحبل بلا دنس ومار يعقوب اسقف سروج (٤٥١ — ٥٢١)

نظم مار يعقوب اسقف سروج الملفان الكبير قصائد مستملحة جمة في تقريظ مناقب العذراء الشائقة النادرة . نكتفي منها بخلاصة ما نثره من اللآلئ اليتيمة في قصيدته البديعة بعنوان « تقريظ العذراء الطوباوية والدة الله مريم » . التقط منها آباء السريان الموارنة شذرات أدمجوها في « الاشحية » اعني الصلوات الاسبوعية[2] وقس عليهم آباء السريان الكاثوليك والسريان اليعاقبة .

وغير خافٍ ان فريقاً من المستشرقين وغيرهم زعموا ان مار يعقوب لم يكن ارثوذكسياً قحاً او بالاحرى كاثوليكياً محضاً . فتجردنا لتزييف زعمهم ونشرنا

١) المشرق ١٧ : ١٩١٤ : ٢٧٥ — ٢٧٧

٢) صفحة ١١٣ و ٢٨١ و ٤٤٨ الخ .

في هذا الصدد عام ١٩٤٦ كتابا دعمناه باصدع البراهين وأدمغ الحجج . وكتب لنا رهط من الايمة المدققين يحبذون مـا أثبتناه وقررناه . نخصّ بالذكر منهم البحّاثة الشهير الاب بولس بترس اليسوعي البولنديّ . اذ نشر في هذا الصدد مقالاً مستوفى[1] .

بعد هذا الشرح الوجيز نعرّب نبذًا من القصيدة المنوّه بها قال :

« دعتني العذراء الحزيلة القداسة لامدحها . فلتنقّ سمعنا ولنصغ الى خطابها النقي البهي لئلا نلحقنا ملامة او حقارة . فهي السماء الثانية حلّ في مستودعهـا رب الاعالي ولاح منها ليشع غياهب الظلام عن الاقطار . هي المباركة في النساء استأصلت اللعنة من الارض ووضعت حدًا للعقوبة . هي العفيفة النقية الممتلئة محاسن القداسة . يعجز لساني عن استيعاب اوصافها . . هي حواء ثانية ولدت الحياة للموتى ومزقت صكّ امها حواء وكفّرت عنه . مدت يدها الى امها العاثرة واخضتها من ورطة الخية القتالة . هي ابنة سجت حلّة المجد ووشحت بهـا اباها وتلافت عريه بين الشجر . هي مصورة جية زاهية شادها الملك ودخلها وحلّ فيها ولم تُفتح ابوابها بعد ما غادرها . . . لا نظير لها اصلا بين العذارى والقديسات والعتيقات ولا بين النساء والوالدات والجاريات .

« اني امدح مريم متعجبًا محتارًا . لا ادري الى اي ذروة سامية ارتفعت ابنة البشر . فهل اختار ابن الله تكرمًا وتفضلًا ام هي اعجبته فاصطفاها امًا له ؟ من الواضح الجلي ان ابن الله العلي هبط الى الارض تكرمًا فرحبت به مريم لان قداستها تفوق كل قداسة . نظر الى تواضعها وحلمها وتقاوتها وحلّ فيها . ولمّا كان التواضع حدّ الكمال استأثر الله العلي الحلول في المتضعين .

« اشتهر بالتواضع موسى وابرهيم ويوحنا المعمدان وغيرهم ممن فاقوهم . بيد انهم لم يبلغوا اصلًا ما بلغته مريم بتواضعها . وبرهاننا على ذلك انه لم يرتق احد الى ما ارتفعت اليه مريم . فلو شوهدت عذراء أطهر وأنقى من مريم حلّ في تلك وعدل عن مريم . ولو وُجدت نفس أطهر وأقدس من نفس مريم لاصطفاها واهبل مريم . فقد نظر سبحانه السماء كافة وانتقى منهن أجملهن وأقدسهن . . . اختار من السماء وحل في العذراء المجيدة لانه لم يكُ لها نظير في الدنيا . . . عذراء وضيعة نقية طاهرة مترهة عن الدنس استحقت ان تكون امه . . .

« رضي عزّ شأنه ان يستقرّ في هيكل فريد بقداسته وهو مستودع مريم المتلألئ بالبتولية . وعرف انها مفعمة كلها بخواطر مقدسة . ومزدانة بمحاسن طبيعية وارادية . ومترهة عن كل دنس ووصمة . لاحت منذ الحبل بها دون شائبة . وسارت في طريق قويمة دون جريرة البتة . طبع نزيه . مزدانٌ بخلال جميلة نفيسة . عذراء بجسدها . قدوسة بنفسها دائمًا وابدًا ! . . .

« عرفت انها صارت امًا لابن الله الازليّ فآمنت وصدقت انها هي وحدها أطهر وأقدس من كل من في الدنيا . شاء الآب القدوس ان يختار امًا لابنه فتريث زمنًا حتى اصطفى فتاة كلها محاسن خفية وجلية . فريدة ممتازة بقلب نقي لتدرك ما صح فيها من الاسرار . . .

---

(1) *Analecta Bollandiana*: Tome LXVI, 1948 . Page 134-198

البابا بيوس التاسع

محدّد عقيدة الحبل بلا دنس

ولد في ١٣ اذار ١٧٨٢ . تسنم العرش البابوي في ١٦ حزيران (١٨٤٦ - ١٨٧٨) . مدة ٣٢ سنة . وهي أطول حبرية في تاريخ الكنيسة .

حدّد عقيدة الحبل بلا دنس في ٨ كانون الاول ١٨٥٤ . وايضاً العصمة البابوية في المجمع الفاتيكاني في ٨ كانون الاول ١٨٧٠ .

توفي في ٢ شباط سنة ١٨٧٨ بعد حياة هي سلسلة فضائل وجهاد واجتهاد .

قبل دعوى تطويبه وتثبيته البابا الطوباوي بيوس العاشر ١٩٠٤ .

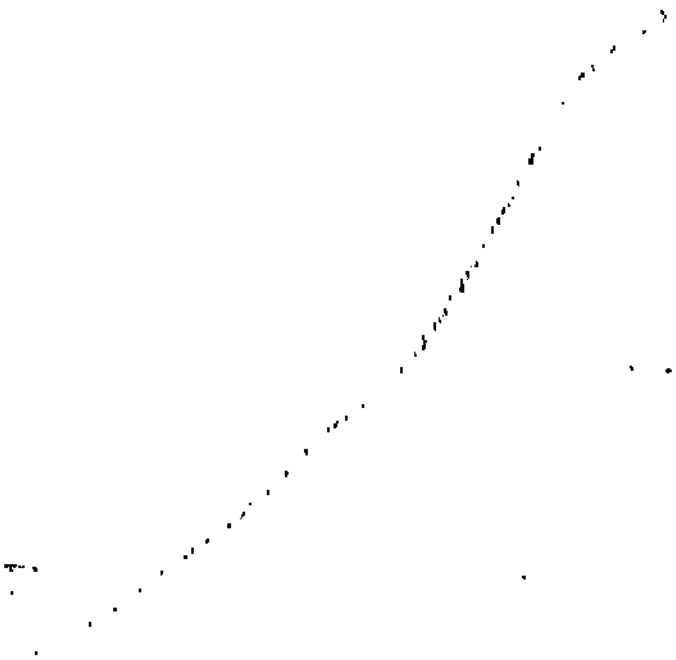

فالله عز وجل يهب الحبل الاختياري ويثني على المشيئة الصالحة اذا أرضته . وهذه العذراء التي افرزها قد اعجبته فاصطفاها امّاً لابنه لانها تعرّدت بتواضعها وطهارتها واستقامتها ومشيئتها الصالحة . فلو كانت نفسها مشوّهة بوصمة او دنس لاصطفى غيرها امّا مقربة خالصة من كل شائبة . . .

« فحبال مريم يفوق كل جمال على الاطلاق . ولم يظهر في الدنيا بأسرها جمال أبدع وأروع منه ! تنقّت مريم في مستودع امها من كل وصمة مثلما تنقى يوحنا المعمدان والينابيع والبيادر وملكيصادق المشاهير العظام .

« نعمى عهد البؤس والشقاء الذي فتك بآدم واقبل عهد الصلاح . . . فحوّنا عن حواء التي سجلت اثمها بين الشجر وافت مريم ابنتها فكفرت عن ديونها ودينون آدم . . . جددت مريم البنيان الذي قوّضته الحية . « وحيث كثرت الخطيئة هناك طفحت النعمة » (روم ٥ : ٢٠) لتجني آدم . ثم ان الحيّة لم تسلّم على حواء لانها لم تقصد الّا الغش والخداع والغواية والهلاك . اما جبرائيل سفير ابن الله الحي فقد حاء مريم بشرى الفداء والخلاص . حياها بالسلام وانبأها بشرى الخلاص والامان . . . وبقدر ما استوحبت حواء اللوم بسبب صمتها بقدر ذلك استحقت مريم الشرف والثناء لجدتها مع الملاك . . . »

وختم مار يعقوب الجليل قصيدته هذه البديعة بابيات اقتضبها من تصانيف مار افرام قال :

« تجلت لنا مريم مثل رسالة مختومة انطوت على اسرار الرب وغوامضه . فجسدها الطاهر الذي يحاكي قرطاساً ناصع البياض دوّن فيه كلمة الله اسمه . على ان ابن الله هو الكلمة والعذراء هي الرسالة التي سجل فيها صكّ العفو والغفران لجميع المذنبين . . . هنيئاً لها الان جمال قداستها يفوق كل جمال وقدرتها منتشرة في كل الاصقاع . طوبى لها لانها جددت ذرية آدم وانشأتها من سقطتها . عليها السلام لان حسدها لم يتدنس قطعاً وأصلاً . . . »[1]

ليت شعري اي عقل لا يقتنع ببراهين هذا القديس الملقان الذابغة ؟ أم اي قلب لا يطرب بنغماته الساحرة وتعابيره المجدية ؟ أم اي لسان يتيسر له ان يترسل مثله في مديح جبل العذراء المنبوطة المنزّه عن كل وضر او دنس او شائبة ؟

خامساً – الحبل بلا دنس والصلوات القانونية الاسبوعية

انطوت الصلوات القانونية الاسبوعية على مُلَح لذيذة عذبة بشأن الحبل البريّ من الدنس فرأينا ان نعرّب منها ما يلي :

١ – صلاة يوم الاثنين

« ان العذراء مريم هي حقل مبارك أينعت فيه سنبلة الافراح . . . وهي لؤلؤة لا دنس فيها مدبجة في تاج الملك : ايتها توجهت لاح سناؤها وجاؤها كالشمس » .

١) نقلاً عن ملحق كتاب مار سهدونا . طبع الاب بولس بيجان ٦١٤ – ٦٢٩

٣ – يوم الاثنين

« ان مريم هي مقصورة الاقداس . اختار الملك واستقر فيها . . . في بهاء جددة جمت الله الكلمة . . . بشرى يا مريم اقبلت لمة اما الاولى . وبشرى فقريا بالخلاص . . . ك ايتها العذراء القديسة تصارعين عوسجة موسى . فالعوسجة تشير الى جسدك الطهور واوراقها التي لم تحترق تشير الى حشاشتك » .

٤ – يوم الاربعاء

أرصدت الكنيسة السريانية يوم الاربعاء للاحتفاء بذكرى العذراء المجيدة. ففي صلاة ذلك اليوم نقول :

« فليكن تذكار صالح في الافطار الاربعة في الكنائس والاديار للعذراء مريم الطاهرة الفائقة القداسة بتوليتها . استحسنها ملك الملوك واختار فاستقر في مستودعها . . . تشبه العذراء سحابة جسية وبهاء لاح فيها شعر البرارة . . . هي مركبة لحمية حملت حامل السماوات والارض . . . المجد للاب القدوس الذي ارسل ابنه القدوس فاختار وحل بالقداسة في حشاء مريم الطور الاقدس . . . هنيئا لك ايتها المقصورة الحافلة بزينتها . فيها رحبت بالبناء العلوي ؛ حملتِ وانتِ بكرٌ . ولدتِ ولبثت طاهرة نقية . . . اصبحت مريم بهاء ثانية ثوى فيها ابن الله القدوس بقداسة . . . تجسدتَ يا كلمة الله الحي بمشيئتك من مريم المخبوطة المتفردة بطهارة نفسها وقداسة جسدها . . . رحبت مريم بالمطر السماوي وأثمرت باقة الافراح وأشبعت البرايا » .

٥ – يوم الخميس

تهتف البرايا وتقول :

« السلام معك ايتها العذراء والدة الله المنعمة بمحاسن القداسة . ابتهلي الى ابنك ليمنح الكنائس والاديار امانا وسلاما براقته وشفاعتك . . . السلام عليك يا احمل النساء المنعمة بمحاسن . عليك السلام يا سحابا منثورا على البرايا . عليك السلام ايتها البرارة التي لم تنثوه بوصمة » .

٦ – يوم الجمعة

« لم يظهر قطعا ما بين العذارى والشابات في الاجيال بأسرها مثل مريم . وليس الذهب الابريزي ولا اي جمال كنفاوتها وجمالها . . . سقيا لك يا درة نقية لا وضر فيها ولا دنس . شاهد الملك عفافك فاختار وتجسد فيك ليعتق آدم وذريته من عبودية الخطيئة » .

٧ – يوم السبت

« مثلك موسى بالعوسجة وداود ابوك بقبة العهد . وجدعون بالجزة والطل . ويعقوب بسلم ارتقى فيه البشر الى السماء . . . في الحق انك مثوى الله الذي لاح منك وكرم تذكارك وعظمه . . . أصبحت العذراء باكورة ومنها تسلسل الخلاص . . . سبحان الله الحليم الذي

سبق فاصطفاك منذ القديم ايتها العذراء القديسة . والشكر ليسوع الذي اتخذ جسداً منك . والتمجيد للروح القدوس الذي اتخذك هيكلاً وحلّ عليك . . . فليكن تذكار في الكنائس والديورة للعذراء النقية مريم والدة الله المتفردة بطهارتها وقداستها . . . لاحت العذراء بهاء جديدة . فيها لمع شمس البرارة واضاء المسكونة وعمق ظلام الضلال . تبارك الذي انعم منها وعزز تذكارها » .

سادساً — الحبل بلا دنس وتعاظيم العذراء

المراد بالتعاظيم تقاريظ للعذراء نسبة الى اللفظة الاولى من تسبحتها الشائقة : « تعظم نفسي الربّ وتتهلل روحي بالله مخلصي » يتلوها السريان كل يوم في صلاة الليل . ويترنمون بها في الآحاد والمواسم ليلاً وصباحاً . والى القارئ ما نعربه عنها مما ينوط بموضوعنا :

١ً : اننا نبجلك ونمجدك ونكرمك يا والدة الله . لان مستودعك الطاهر قد اتسع لمحوى ابن الله الذي لا يحصره حدّ . انك أسمى من اجواق السمائيين وأرفع من أجناد الكروبيين الكثيري الاعين .

٢ً : ان محاسنك السامية ايتها الشريفة تذهل العقول وتدهش الالباب . انك امّ عذراء بتول والدة الله . وعروس مزدانة بالمحاسن جمعاء . . . تحتار العقول لدى تأملها مجدك وبهاءك ايتها القدّيسة . وتكلّ الالسن عن وصف مناقبك . فانت مقصورة حافلة بالزينة حلّ فيها يسوع الملك . وانتِ سفينة منحتنا كنز الحياة . . .

٣ً : اننا نبجلك يا والدة الله العذراء . يا نقية طاهرة بجبيدها . واضحت نفسها مخزن الاقداس . وحوى مستودعها باعجوبة باهرة الاله الذي لا حد له .

٤ً : ينشد الاكليريس في النغمة السابعة : عليك السلام ايتها العذراء الطاهرة القديسة . يا لؤلؤة لا درن ولا عيب فيها . . قد حملتِ ابن الله الجبار حامل البرايا . اياك تغبط القبائل جمعاء . . . هنيئاً لك ايتها العروس الشريفة يا والدة مانح النور . ابتهجي لانكِ حملتِ في مستودعكِ من لا تسعه الخلائق طرّاً . افرحي خصوصاً ايتها الكريمة لانكِ اسمى من الكروبيم ! فاستأهلت ان تحملي فادي النفوس .

٥ً : وينشدون في النغمة الثامنة : اننا نمدحكِ بنغمة حلوة وانا نشيد روحية يا ام الربّ ملك الملوك السماويّ . لقد ولدتِ كلمة الآب باعجوبة باهرة

عوق العقول جميعها . تاستي تلي وارفع من جميع اجواق السمويين !

اخيراً يرتل الكاهن في جميع الصلوات القانونية مساء وصباحاً وفي الساعة السادسة استغفارية عمومية يصدرها بهذه الصفات الكريمة فيقول :

« مؤدي الحمد لله السامي المجيد الذي شرف تذكار والدته في البر والارض – وفتح مدونة حلوة ذاك المستحقة الطوبى الناطق بعدها قبائل الارض القديسة المجيدة المباركة الرفيعة الشأن الداعة البتولية المعوطة والدة الله مريم ».

سابعاً – الجبل بلا دنس وبطاركة السريان الكاثوليك

١ – البطريرك اغناطيوس اندراوس اخيجان (١٦٦٢ – ١٦٧٧)

هو اول بطريرك سرياني كاثوليكي جاهر بعقيدة الجبل بلا دنس ، ذلك ان الاب يوسف بسون اليسوعي لما عرض عليه هذه القضية في حلب صرّح قائلاً :

« اني اثبت ما عرضه عليّ الاب يوسف بسون اليسوعي في أمر براءة العذراء مريم الكلية الطهارة من الخطيئة الاصلية . وأقر بانه موافق للتعليم الارثوذكسي كما أعلنه كثيرون من الاباء الاقدمين ومن ملافنة الكنيسة السريانية »[1] .

٢ : البطريرك اغناطيوس ميخائيل الثالث جروة (١٧٨٢–١٨٠٠)

نُكب هذا البطريرك المغبوط نكبات فظيعة فتاكة في اسفاره الشاقة انقذته من غوائلها مريم العذراء القديرة . وكان يحمل صورتها الكريمة المنقوشة على خشب ويستغيث بها في ملماته كلها . ومنذ السنة ١٧٧٤ حتم على اولاد ابرشيّته الحلبية ان يحتفلوا بعيد الجبل بلا دنس . ثم نهى عن تقريب الذبيحة الالهية اي كاهن لا يسبق فيرتل في الصلاة الفرضيّة « تعظيمة » العذراء الجليلة[2]. ولمّا وصل الى لبنان عام ١٧٨٤ شاد باسمها المبارك دير الشرفة تيمناً باسم العذراء « سيدة النجاة » .

٣ – البطريرك اغناطيوس انطون سحيري (١٨٥٣ – ١٨٦٤)

في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٥٣ عند اساقفة السريان جمعاً في دير سيدة النجاة بالشرفة واصطفوا بالصوت الحيّ السيد يوليوس انطون سحيري مطران ماردين بطريركاً انطاكياً . فسألهم ان تقام حفلة تنصيبه في ٨ كانون الاول تيمناً

---

١) المشرق ٧ : ١٩٠٤ : ٤٠٢

٢) مخطوطة دير الشرفة ١٩ : ٢

بعيد الحبل الطاهر بسيدتنا مريم العذراء المنبوطة . وكان قد بلغه صدى صوت إمام الاحبار البابا بيوس التاسع الطيب الاثر مذيعاً تلك الحقيقة الدينية محرضاً اولاده الكاثوليك عرباً وشرقاً ان يقيموا في اثناء السنة ١٨٥٤ حفلات يوبيلية تكريماً للعذراء البريئة من الدنس استطاراً لنعمها وبركاتها .

وفي حزيران السنة عينها ارتحل البطريرك الى عاصمة الكثلكة ووشحه ابو المؤمنين في ٢ تموز بالدرع المقدس . ومما صرح به البطريرك يومئذٍ لقداسته انه معوّل ان يؤسس كاتدرائية في ماردين مركز كرسيه تيمناً باسم العذراء المنزهة عن كل وصمة ودنس . ابتهج الحبر الروماني الابتهاج كله وكتب رسائل توصية الى احبار فرنسة وبلجيكة وهولندة وزعمائها ليساعدوا البطريرك الانطاكي في انجاز رغبته المقدسة . فزار البطريرك تلك العواصم وانثالت عليه الحسنات السخية والتحف الثمينة وعاد الى رومية يؤدّي حميم الشكر لخليفة شمعون الصفاة ومنها سافر الى ماردين ووضع اوّل حجر لبنيان الكاتدرائية المرمية ودشنها في ٥ آب ١٨٦٠ باحتفال منقطع النظير اذ كان جمهور المؤمنين يذرفون دموع البهجة والشكر لله عزّ وجلّ ولسلطانة الحبل بلا دنس ولبطريركهم المحبوب.

ولم يكتف البطريرك بذلك بل سار الى المؤجل وطنه وأسنى لاولاده المواصلة ٨٠ الف غرش ذهباً لتشييد كنيسة كبرى باسم « العذراء الطاهرة » واضاف الى ذلك المبلغ مبلغاً ثانياً لاجل انجازها وقس عليها كنيسة بغداد . واتصف هذا البطريرك الطيب المأثر بغرط غرامه بالعذراء. فابتنى باسمها المبارك عدّة كنائس . واعتاد في اواخر عمره ان يجتمع عشيّة كل يوم بابناء الكهنة ويتلو معهم السبحة الوردية . وانتقل الى راحة الابرار في ١٦ حزيران ١٨٦٤ وهو يهتف ذات المزار « يا عذراء ! يا عذراء ! » .

٤ — البطريرك اغناطيوس افرام رحماني (١٨٩٨ — ١٩٢٩)

اغتنم هذا البطريرك المنبوط فرصة مرور نصف قرن على اعلان عقيدة الحبل بلا دنس فاقام في كنيسة بيروت عام ١٩٠٤ حفلات تقوية جميلة دعا اليها السادة الاساقفة الكاثوليك واكليرسهم . وفوّض الى رهطٍ منهم ان ينظموا بلغات شتى تقاريظ للعذراء الطهور الجزيلة قداستها . فلبوا طلبه وانتهت الحفلات على اتم ما يرام من الرونق والابّهة والخشوع . وختمها البطريرك الجليل بموعظة

رائعة عدد فيه مناقب العذراء ولا سيما الحبل بها المنزّه عن كلّ عيب ودرن . ثم اصدر منشورًا في هذا الصدد اقتضب اعلب بيناته من آباء السريان ولا سيما من ابينا مار افرام الملفان الكبير وبعث به الى جميع الابرشيات اللاتذة بكرسيه الانطاكي . واستصنع اثنتي عشرة نجمة ذهبية كلل بها تاج صورة العذراء الكبرى في دير سيدة النجاة بالشرفة .

٥ – الكردينال البطريرك اغناطيوس جبرائيل تبوني (١٩٢٩ –)

نُكب هذا الحبر الانطاكي المغبوط بتهمة فظيعة كادت تقضي على حياته الثمينة . ذلك انه صباح اول ايار ١٩١٨ قُبض عليه في ماردين واستيق الى المحكمة وصدر الامر بنفيه . وفي ١٧ حزيران غادر ماردين ابرشيته وسافر الى حلب مخفورًا بالجند . وفي ٢٢ الشهر عينه استُدعي الى دائرة الاستنطاق فلم يثبت عليه المستنطق حجةً فاعادوه الى السجن واتروى فيه حتى السبت ١٠ آب وهو يستغيث برب الرحمات وسيدة النجاة لينجو من تلك الفائلة الفتاكة . ويوم الخميس ٥ ايلول استيق المطران المحبوب الى جبل سمعان وحُشر في مغارة ضيقة مستكرهة . وظلّ الاب يوسف رباني[1] الهمام يفرغ الجهود كليا في تخفيف الشدة عن مطرانه الجليل ويودّ لو يفتديه بنفسه غير مبالٍ بما يحيق به من الخطر . وفي ٢٩ ايلول استُدعي تكرارًا المطران جبرائيل البريّ الى المجلس العرفي ثم أُعيد الى سجنه .

استيقن المطران المحبوب بدنو الاجل بسبب استحكام الوهن في جسمه وتفاقم عذابه فلم يَرَ الّا ان يجدّد ثقته البنوية بالعذراء سيدة النجاة وامّ الخلاص صباح اول تشرين الاول معتقدًا الاعتقاد كله بانها تنقذه من تلك الورطة في احد وردّيتها المباركة . وقد أنجته تلك العذراء القديرة الكريمة في ذلك النهار عينه وسارع الى كنيستها في حلب وجثا يشكر للعناية الربانية عميم فضلها وللعذراء الكريمة وفور جميلها . وعند المذبح حمل صورتها المقدسة وطاف بها في الكنيسة بين اناشيد الاكليروس والمؤمنين.

على هذا الاسلوب أنقذت العذراء البطوف ابنها الوفيّ فنذر عربونًا لولائه

١) ارتقى عام ١٩٢٩ الى الكرامة الاسقفية لابرشية حمص وحماة وتوابعها .

ووفائه لجميلها واحسانها ان ينشر عبادة رديتها ويسبيها شفيعة ومحامية خصوصية للطائفة السريانية جمعاء . ثم اذاع عام ١٩٣٥ رسالة رعوية بديعة استرسل فيها في وصف مفاخرها النادرة ومزاياها الحلوة شفعها عام ١٩٥٠ برسالة ثانية في فرصة اعلان انتقالها بالنفس والجسد الى النعيم السماوي . وصمم ان يعزز ديرها في الشرفة بلبنان فاخذ منذ عام اول يؤسس بجانبه بناء فخماً ضخماً . وما برح العملة يشتغلون به . كافأته العذراء السخية باغزر البركات وأوفر النعم وأطول الاعمار .

٦ – السيد اقليميس يوسف داود مطران دمشق (١٨٧٩ – ١٨٩٠)

جاد المولى السخي على هذا الحبر النبيل بتوقد الفكر واتساع النظر وطول الباع في شتى العلوم واللغات . فصنف كتباً جمة تُعدّ من أثمن الخرائد وأدق المواضيع . وتفرّغ مدة عشرة اعوام للنظر في كتب الفرض القانوني وتصحيحها وتنقيحها وضبطها بالشكل الكامل . وجعل منذ السنة ١٨٨٤ ينشرها بالطبع . ودبّج المجلّد الاول الخصوصي بعلوات قانونية يترنم بها الاكليرس في عيد الحبل النقي من الدنس صنف هو معظمه ونقل بعضه عن أئمة السريان واللاتين . فجاء فرضاً جميلاً بديعاً يستحق لاجله ثواباً وافراً من العذراء امّ العفاف والطهر والقداسة وثناء جزيلاً متواصلاً من الاكليرس السرياني . تغتمد الربّ نفسه باغزر رحماته .

هذا وتضرب الصفح عن احصاء الكنائس التي أسسها آباؤنا المغبوطون في مختلف الابرشيات تبركاً باسم والدة الله المنزّهة عن كل وصمة . أقدمها كنيسة سيدة الانتقال في حاب وسيدة النجاة في دير الشرفة والحبل بلا دنس في ماردين والطاهرة في الموصل وكنيسة الحبل بلا دنس في بغداد . وقس عليها كنيسة البصرة وكنيسة دير الزور وكنيسة قطنة بدمشق وكنائس النبك وحماة وزيدل بابرشية حمص وسيدة بباي بالقاهرة والاسكندرونة والبشارة ببيروت والانتقال في الحسجة والقامشلي الخ الخ . نضيف اليها كنيسة العذراء في كمبو مارسيو برومية العظمى وقد منّ بها على الطائفة السريانية البابا بندكتوس الخامس عشر الطيب الآثار والمآثر . وكنيسة الانتقال التي جاد بها الآباء الفرنسيسيون الافاضل على السريان في طرابلس .

ويقيم السريان كل عام ١٢ موسماً للعذراء الجليلة : ١ : موسم الحبل بها بلا دنس . ٢ : ميلادها . ٣ : تقدمتها للهيكل . ٤ : احد بشارتها . ٥ : عيد بشارتها . ٦ : زيارتها لاليشباع . ٧ : تهنئتها بميلاد المخلص وحيدها . ٨ : تقدمتها ابنها في الهيكل . ٩ : انتقالها الى السماء . ١٠ : استمناح بركتها للزروع . ١١ . وكذلك للسنابل . ١٢ : الكنيسة الاولى التي تأسست باسمها . وتنبه القراء النجباء ان عيد انتقال العذراء يدعى كذلك « عيد الجفنة » . فالسريان يستغيثون بالعذراء في مواسم انتقالها ومباركتها الزروع والسنابل مستمنحين بركتها للقمح والعنب كي يُعَدّا للبرشان والخمر في تقريب القدّاس الالهي .

الخاتمة

يحق إذن للكنيسة السريانية ان تجاهر على رؤوس الملأ بافواه جميع أبنيتها العظام وملافنتها الاعلام مصرّحة بان قداسة العذراء والدة الله عزّ شأنه تضاهي قداسة ابنها يسوع قدّوس القديسين . وقد جاد الرب السخي عليها بهذه النعمة المتأثرة منذ اللحظة الاولى لحبلها في حشاء امها حنة بأقدس قداسة وأكمل طهارة وأسمى نقاوة . فهي أقدس من السواريف وأرفع من الكواريب واكمل من جميع اجناد الملويين وكفى .

تلك زنبقة جنيناها من روضة الكنيسة السريانية وزففناها الى القراء الاحبة ليضاعفوا شغفهم بالعذراء الطاهرة النقية من كل وصمة وينعشوا نفسهم بشفاعتها المقبولة .

ويلذ لنا ان ننهي المقال بعبارات لطيفة سنديدة يختم بها الاكليرس السرياني صلواته القانونية مساء وليلاً وصباحاً هذا تعريبها :

« نجنا يا رب من الشدائد والاخطار . وأنقذنا من النوائل والاهوال . . . بشفاعة وحماية ام الرحمة المتوشحة بالغلبة والانتصار . السماء الثانية . فخر المسيحيين الحنيفيين . العذراء المترهة عن كل وصمة ودنس . القديسة والدة الله مريم » آمين .